

المحاضرة الثالثة عشر / المرحلة الثانية

الكناية:

الكناية لغةً: مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيُرِيدُ بِهِ غَيْرَهُ وَهِيَ مَصْدَرٌ "كَنَيْتُ" أَوْ "كَنَوْتُ" بَكْدًا إِذَا تَرَكْتُ التَّصْرِيحَ بِهِ.

وإصطلاحاً: لَفْظٌ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ مَعْنَاهُ الَّذِي وُضِعَ لَهُ، مَعَ جَوَازِ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْأَصْلِيِّ لِعَدَمِ وَجُودِ قَرِينَةٍ مَانِعَةٍ مِنْ إِرَادَتِهِ. وَحَتَّى نَقَفَ عَلَى مَفْهُومِ الْكِنَايَةِ تَعَالَوْا بِنَا نَنْظُرُ فِي شِكْوَى أَعْرَابِيَّةٍ إِلَى أَحَدِ الْوَلَاةِ، فَقَدِ جَاءَتْ أَعْرَابِيَّةٌ إِلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَتْ لَهُ: أَشْكُو إِلَيْكَ قَلَّةَ الْفَرَانِ فِي بَيْتِي.

فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْوَالِي إِلَّا أَنْ مَلَأَ بَيْتَهَا طَعَامًا وَكِسَاءً.

وَلَا يَخْفَى عَلَى فَهْمِنَا أَنَّ تِلْكَ الشَّاكِيَةَ لَمْ تُرَدُّ أَنْ تَمَلَأَ بَيْتَهَا فِرَانًا، وَإِنَّمَا أَرَادَتْ أَنْ تَشْكُوَ لِلْوَالِي شِدَّةَ فَقْرِهَا، حَتَّى أَنْ الْفَرَانَ هَجَرَتْ بَيْتَهَا، لِأَنَّهَا لَا تَجِدُ مَا تَقَاتُ بِهِ، وَقَدْ فَطِنَ الْوَالِي لِمُرَادِهَا مِنْ عِبَارَتِهَا تِلْكَ، فَفَعَلَ مَا فَعَلَ لِمَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ قَلَّةِ الْفَرَانِ فِي بَيْتِ تِلْكَ الْأَعْرَابِيَّةِ الشَّاكِيَةَ فَقْرُهَا وَحَاجَتُهَا، مَعَ أَنَّهُ

مِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ بَيْتُهَا قَلِيلَ الْفَرَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وَتَنْقَسِمُ الْكِنَايَةُ بِحَسَبِ الْمَعْنَى الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

والكناية وسط بين الحقيقة والمجاز، فليست مجازاً وليست حقيقة، وذلك لأنها يُستعمل فيها اللفظ في معناه الحقيقي الموضوع، أو الالفاظ - إن كانت الكناية مركبة من ألفاظ - في معانيها الموضوعية لها، فتختلف بهذا عن المجاز اللغوي، ولكننا لا نريد من هذه الألفاظ معانيها الحقيقية، بل نريد لازم تلك المعاني، وبهذا تختلف الكناية عن الحقيقة.

أولاً: الكناية عن صفة: نَقَرَأُ كَلَامَ الْخُنَسَاءِ ، تِلْكَ الشَّاعِرَةُ الْبَاكِيَةُ الْمَفْجُوعَةُ تَرْتِي أَخَاهَا بِأَعْدَبِ الْأَبْيَاتِ، وَتَخْتَصِرُ مَأْتِرَهُ بِبَيْتِ حَمَلِ الْكَثِيرِ، فَتَقُولُ:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَنَا

لَقَدْ وَرَدَ فِي بَيْتِ الْخُنَسَاءِ ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لَصَخَرَ هِيَ: طَوِيلُ النَّجَادِ، وَيَعْنِي فِي الْأَصْلِ أَنَّ مَحْمَلِ سَيْفِهِ طَوِيلٌ، وَرَفِيعُ الْعِمَادِ، وَيَعْنِي فِي الْأَصْلِ أَنَّ عَمُودَ بَيْتِهِ مَرْتَفِعٌ، وَكَثِيرُ الرَّمَادِ، وَيَعْنِي فِي الْأَصْلِ أَنَّ مُخَلَّفَاتِ نَارِهِ كَثِيرَةٌ.

وَالْأَسْئَلَةُ الَّتِي تُلْحُ عَلَيْنَا، وَنُرِيدُ أَنْ نُجِيبَ عَلَيْهَا:

١- مَاذَا قَصَدَتِ الْخَنَسَاءُ مِنْ وَرَاءِ وَصْفِ كُلِّ مِنَ الْأَوْصَافِ السَّالِفَةِ؟

٢- وَمَا عَلاَقَةُ الْمَعْنَى الْأَصِيلِ لِكُلِّ وَصْفٍ مِنَ الْأَوْصَافِ السَّالِفَةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَصَدْتُهُ الْخَنَسَاءُ؟

٣- وَهَلْ مِنَ الْجَائِزِ لَنَا إِرَادَةُ الْمَعَانِي الْحَقِيقِيَّةِ الْوَارِدَةِ لِلأَوْصَافِ السَّالِفَةِ؟

كثيراً ما يعرضُ لنا عبارةٌ أو أكثرٌ لا نأخذُها بمعناها الأصيل، وإنما نستدلُّ بها على معنى آخر، لأنَّ قائلها إنما أراد أن يُومئَ لنا بعبارةٍ تلكَ عن معنى مكنونٍ في نفسه.

وهذا ما نجدُه عندَ الخنساءِ في رثاءِ أخيها، عندما أرادت أن تُذكرَ محامدَه، فكان ممَّا وصفتهُ به أنَّ محمِلَ سيفِه طويلٌ (طويل النَّجاد) وهذا يقتضي أنَّ صاحبَه طويلُ القامة، إذ ليسَ من المُناسب أن يكونَ محمِلُ سيفِ المرءِ طويلاً وهو قصيرُ القامة، وهكذا فإنَّ المرادَ بقولها (طويل النَّجاد) أنَّ صخراً طويلاً يملأُ العينَ.

ووصفتهُ بأنَّ عمودَ بيته مرتفعٌ (رفيع العماد) قاصدةً بذلكَ أنه وجيهٌ عظيمُ المنزلة، كما وصفتهُ بأنَّ مخلفاتِ نارِه كثيرةٌ (كثير الرماد) ولم تقصدْ بذلكَ إلا أنه كريمٌ مضيافٌ.

ولكنَّ ثمةَ علاقةٌ تظهرُ بينَ المعنى الأصيلِ والمعنى المقصودِ، فطولُ النَّجادِ في قولِ الخنساءِ لعل المراد منه أنه كلما ارتفع عماد الخيمة ووسطها اتسعت وامتدت أطرافها لطول الخطوط المنحنية الواصلة إلى أطرافها حينئذٍ، وهذا لازم له لازم، فسعة البيت لكثرة الضيوف، وكثرة الضيوف تدل على الوجاهة وعلو المركز.

كما أنَّ من مستلزماتِ كثرةِ الرمادِ كثرةُ حرقِ الحطبِ للطبخ، ما يلازم كثرةَ الضيوفِ، وهذا دليلُ الكرمِ.

وعلى الرغمِ من أنَّ المعنى الأصيلَ ليسَ هو المقصودُ إلا أنه ليسَ ممتنعاً، فمنَّ الجائزِ لنا إِرَادَةُ الْمَعْنَى الْأَصِيلِ فِي كَوْنِ مَحْمِلِ سَيْفِ صَخْرٍ طَوِيلًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وكذا ارتفاعِ عمودِ بيته وكثرةُ مخلفاتِ نارِه. ولما كانَ كلُّ تركيبٍ مِنَ التَّرَاكيبِ السَّابِقَةِ، وهي "طويل النَّجاد"، و"رفيع العماد"، و"كثيرُ الرمادِ"، كُنِيَ بِهِ عَنْ صِفَةٍ لَازِمَةٍ لِمَعْنَاهُ، كانَ كلُّ تركيبٍ مِنْ هَذِهِ وَمَا يُشَبِّهُهُ "كِنَايَةً عَنْ صِفَةٍ" وهي القِسْمُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِنَايَةِ.

وهذا القِسْمُ مِنَ الْكِنَايَةِ لَهُ نَوَعَانٌ:

أ- كنايةٌ قريبةٌ: وهي ما يكونُ الانتقالُ فيها إلى المطلوبِ بغيرِ واسطةٍ بينَ المعنى المنتقلِ عنه، والمعنى المنتقلِ إليه، كقولِ الخنساءِ في رثاءِ صخر: طویلُ النجادِ، رفیعُ العمادِ....

ب- كنايةٌ بعيدةٌ: وهي ما يكونُ الانتقالُ فيها إلى المطلوبِ بواسطةٍ، أو بوسائطٍ، نحو: "فلائنٌ كثيرٌ الرمادِ" كنايةٌ عن المضيفِ، والوسائطُ: هي الانتقالُ من كثرةِ الرمادِ إلى كثرةِ الإحراقِ، ومنها إلى كثرةِ الطبخِ والخبزِ، ومنها إلى كثرةِ الضيوفِ، ومنها إلى المطلوبِ وهو المضيفُ الكريمُ.

ثانياً: الكناية عن الموصوف: يقول الشاعرُ :

الضاربین بِكُلِّ أبيضٍ مَحْدَمٍ وَالطاعِنین مَجامِعِ الأضغانِ هـ

أراد الشاعرُ أن يصفَ مدوحيه بأنهم يطعنونَ القلوبَ وقتَ الحربِ، فانصرفتَ عن التَّعبيرِ بالقلوبِ إلى ما هو أملحُ وأوقعُ في النَّفسِ وهو "مجامعُ الأضغانِ"، لأنَّ القلوبَ تُفهمُ منه، إذ هي مُجتَمَعُ الحَقْدِ والبُغْضِ والحَسَدِ وغيرِها. ولا يخفى أن ما أرادَ الشاعرُ أن يَكْنِي عنه ليسَ صِفَةً، لأنَّه صرَّحَ بِتلكَ الصِّفَةِ في كلامِهِ، وإنما أرادَ المعنى البعيدَ، فذكرَ صِفَةً مُختَصَّةً كانتْ كِنايَةً عَنِ الموصُوفِ

الَّذي هو القلبُ، وهذا مثلُ قولِ الشاعرِ قولُ أميرِ الشعراءِ :

ولي بينَ الضلوعِ دَمٌ ولَحْمٌ هُما الواهي الَّذي تَكَلَّ الشَّبَابا

فإنَّ الموصُوفَ في هَذَا المِثَالِ بالدمِّ واللحمِ بينَ الضلوعِ - أيضاً - هو القلبُ لا غيرُ، فقد كَنَى الشاعرُ عَن هَذَا الموصُوفِ بما يَدُلُّ عليه مِنْ أَنه دَمٌ ولَحْمٌ، ويقَعُ بينَ الضلوعِ، فالمَكْنِي عنه هُنَا موصوفٌ أيضاً، وكلُّ كِنايَةٍ يَكُونُ المَكْنِي عنه فيها موصوفاً اصطِلحَ عَلى تَسْمِيَّتِها "كِنايَةً عَنِ موصُوفٍ" وهي القِسمُ الثَّاني مِنْ أقسامِ الكِنايَةِ .

ولِهَذَا القِسمِ مِنَ الكِنايَةِ أيضاً نواعانُ:

أ- أن يكونَ للموصوفِ صِفَةٌ مُختَصَّةٌ، فنذكرُ الصِّفَةَ لتَكُونُ كِنايَةً عَنِ ذاكِ الموصوفِ، مثلُ "مجامعُ الأضغانِ" كناية عن "القلبِ" أو كقولِهِ - تعالى - : (أومن يُنشأُ في الحليَّةِ) ، كناية عن البناتِ والنساءِ.

ب- أن يكونَ للموصوفِ صِفاتٌ مُختَصَّةٌ بموصوفٍ واحدٍ، فنذكرُها كِنايَةً عَنِ ذاكِ الموصوفِ، مثلُ: "الحيِّ، مستوي القامةِ، عريضُ الأظفارِ" كناية عن الإنسانِ، وقوله - تعالى - : (وَحَمَلْنَاهُ عَلى ذَاتِ ألْواحٍ وَدُسُرٍ) كناية عن السفينةِ.

ج- يقول زيادُ الأعجمُ في مدح عبدِ اللهِ بنِ الحِشْرِجِ:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

فَقَدْ أَرَادَ الشَّاعِرَ - هُنَا - أَنْ يَنْسِبَ إِلَى مَمْدُوحِهِ سَمَاخَةَ النَّفْسِ وَالْمُرُوَّةَ وَالنَّدَى، فَعَدَلَ عَنْ نِسْبَتِهَا إِلَيْهِ مَبَاشِرَةً، وَتَرَكَ التَّصْرِيحَ بِالاسْمِ بِأَنْ يَقُولَ: "ابْنُ الْحَشْرِجِ مَخْتَصٌّ بِهَا" بَلْ نَسَبَ إِلَى مَكَانِهِ وَهُوَ الْقُبَّةُ الْمَضْرُوبَةُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي الْقُبَّةِ الَّتِي ضُرِبَتْ عَلَيْهِ: وَنَسَبَهُ الصِّفَاتِ إِلَى الْقُبَّةِ تَسْتَلْزِمُ نِسْبَتَهَا إِلَى الْمَمْدُوحِ، فَالانتقالُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ إِذَا أُثْبِتَ الْأَمْرَ فِي مَكَانِهِ فَقَدْ أُثْبِتَ لَهُ. وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا لَوْ قُلْنَا فِي وَصْفِ أَعْدَائِنَا: "الْمَكْرُ قَدْ نُسِجَ فِي ثِيَابِهِمْ"، فَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْسِبَ صِفَةَ الْمَكْرِ إِلَى أَعْدَائِنَا، فَعَدَلْنَا عَنْ نِسْبَتِهَا إِلَيْهِمْ مَبَاشِرَةً وَنَسَبْنَاهَا إِلَى مَا لَهُ اتِّصَالٌ بِهِمْ وَهُوَ ثِيَابُهُمْ، فَالْمَكْنِيُّ عَنْهُ - هُنَا - هُوَ "نَسَبُهُ صِفَةَ الْمَكْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ" وَكُلُّ كِنَايَةٍ يَكُونُ الْمَكْنَى عَنْهُ فِيهَا نَسَبَةً صِفَةً اصْطُلِحَ عَلَى تَسْمِيَّتِهَا "كِنَايَةً عَنْ نَسَبَةٍ" وَهِيَ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنْ أَقْسَامِ الْكِنَايَةِ.

وهذه الكنايةُ نوعان:

أ- إمَّا أَنْ يَكُونَ ذُو النَّسَبَةِ مَذْكُورًا فِيهَا، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

الْيُمْنُ يَتَّبِعُ ظِلَّهُ وَالْمَجْدُ يَمْشِي فِي رِكَابِهِ

ب- وإمَّا أَنْ يَكُونَ ذُو النَّسَبَةِ غَيْرَ مَذْكُورٍ فِيهَا: كَقَوْلِنَا: خَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَنْفَعُ النَّاسَ، كِنَايَةً عَنْ نَفِي الْخَيْرِيَّةِ عَمَّنْ لَا يَنْفَعُهُمْ. وَكَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي".

القواعد الرئيسية

١- الكنايةُ لفظٌ أُطْلِقَ وَأُرِيدَ بِهِ لِأَزْمٍ مَعْنَاهُ مَعَ جَوَازِ إِرَادَةِ ذَلِكَ الْمَعْنَى.

٢- تنقسمُ الكنايةُ بِاعْتِبَارِ الْمَكْنِيِّ عَنْهُ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ، فَإِنَّ الْمَكْنِيَّ عَنْهُ قَدْ يَكُونُ صِفَةً، وَقَدْ يَكُونُ مَوْصُوفًا، وَقَدْ يَكُونُ نَسَبَةً.

تمارين

١- بَيِّنِ الصِّفَةَ الَّتِي تَلْزِمُ مِنْ كُلِّ كِنَايَةٍ مِنَ الْكِنَايَاتِ الْآتِيَةِ:

- نُؤُومُ الضَّحَى.

- أَلْقَى فَلَانٌ عَصَاهُ.

- ناعمة الكفين.

- قرع فلان سنه.

- يشار إليه بالبنان.

- قال تعالى: (وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا).

- ركب جناحي نعامه.

- لوت الليالي كفه على العصا.

- قال المتنبي في وصف فرسه:

وأصرع أي الوحش قفئته به وأنزل عنه مثله حين أركب

- فلان لا يضع العصا على عاتقه.

٢- بين الموصوف المقصود بكل كناية من الكنايات الآتية:

قال الشاعر:

قوم ترى أرماعهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

- وقال تعالى: (أَوْ مَنْ يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) ١٥.

- قال أبو نواس:

فلما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي

- وقال المعري في السيف:

سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السلالات

- كبرت سن فلان وجاءه النذير.

- سئل أعرابي عن سبب اشتعال شيبه، فقال: هذا رغوۃ الشباب.

- وسئل آخر، فقال: هذا غبار وقائع الدهر.

٣- بين النسبة التي تلزم كل كناية من الكنايات الآتية:

- قال أعرابي: دخلت البصرة، فإذا ثياب أحرار على أجساد العبيد.

- وقال في مدح كافور:

إِنَّ فِي تَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ

للمطالعة

بلاغه الكناية:

الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تُعطيك الحقيقة، مصحوبةً بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها، كقول البحري في المديح:

يَغْضُونَ فَضْلَ اللَّحْظِ مِنْ حَيْثُ مَا بَدَأَ لَهُمْ عَنْ مَهَيْبٍ، فِي الصَّدُورِ، مَحَبَّبٍ

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح، وهيبتهم إياه، بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصة جليةً في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكنايات أنها تضع لك المعاني في صورة المحسوسات، ولا شك أن هذه خاصة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورةً للأمل أو لليأس، بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً، فمثل كثير الرماد في الكناية عن الكرم، ورسول الشر، في الكناية عن المزاح. ومن خواص الكناية: أنها تُمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلاً، ودون أن تخدش وجه الأدب، وهذا النوع يُسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة، يمدح بها كافوراً:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَمَّمٍ

وَمَا مَنَزَلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ

سَجِيَّةِ نَفْسٍ مَا تَرَالُ مُلِيحَةً

رَحَلْتُ فَكَمْ بَالِكِ بِأَجْفَانِ شَادِنِ

وَمَا رَبُّهُ الْفُرْطِ الْمَلِيحِ مَكَائُهُ بـ

فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ

رَمَى وَاتَّقَى رَمِييَ وَمَنْ دُونَ مَا اتَّقَى

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ

وَأُمَّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مِيَمٍ
إِذَا لَمْ أُبَجَلْ عِنْدَهُ وَأُكْرَمَ
مَنْ الضَّيْمِ مَرْمِيًّا بِهَا كُلِّ مَخْرَمِ
عَلَيَّ وَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيْعَمِ
أَجْرَعُ مِنْ رَبِّ الْحَسَامِ الْمُصَمِّمِ
عَدَرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبِ مُعَمِّمِ
هُوَ كَاسِرُ كَفِّي وَقَوْسِي وَأَسْهُمِي
وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهُمِ

فإنه كنى عن سيف الدولة، أولاً: بالحبیب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدعي أنه من شيمة النساء، ثم لأمه على مبادهته بالعدوان، ثم رماه بالجبن، لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره، على أن المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله، لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوى قديماً، يكسر كفه وقوسه، وأسهمه، إذا حاول النضال، ثم وصفه بأنه سيء الظن بأصدقائه، لأنه سيء الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثله في سوء الفعل، وضعف الوفاء. فانظر كيف نال المتنبي من هذا، ومن أوضح مميزات الكناية التعبير عن القبيح بما تُسبغ الأذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا لا يُعبّرون عمّا لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكتنون عن المرأة بالبيضة والشاة.

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ دَاتِ عِرْقٍ عَلَيْنِكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ

فإنه كنى بالنخلة، عن المرأة التي يُحبها.